فريدة دريدي - جامعة عنابة - الجزائر

# أوربا وثنائية الإغراء والإقصاء في رواية البعيدون لبهاء الطود

**الملخص**

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة إشكالية صراع الحضارات في رواية البعيدون للروائي المغربي بهاء الطود، الذي أعطى لتيمة الصراع الحضاري القائم على ثنائيات ضدية تشرح واقع العلاقة المضطربة بين الأوربي والعربي وبالتحديد الإفريقي، انطلاقا من معالجة موضوع الهجرة، الذي يعكس طبيعة الصراع، كما تهدف الدراسة إلى توضيح إمكانية أن تحول الصراع الحضاري في الرواية إلى حوار ثقافي مبني على الأخذ والعطاء ويدعو إلى التسامح المصالحة بين الأنا والآخر.

**الكلمات المفتاحية**

صراع الحضارات- الأنا- الآخر الأوربي- الإفريقي-الهجرة-الإغراء- الإقصاء.

**Résumé**

*Cette étude littéraire à traiter la problématique du choc des civilisations dans le roman "les loin" du romancier marocain "Baha Ettod ", reliant le thème du conflit à la dialectique du Moi et l'Autre, comme binaires antithétiques expliquant la réalité de la relation trouble entre l'Européen et l'Arabe et en particulier celui d'Afrique, à commencer par le traitement de la question de l'immigration qui reflète la nature du conflit. Cette étude vise aussi à clarifier la possibilité de la transformation du conflit culturel dans le roman en un dialogue culturel fondé sur l'échange et l'interaction, et appelle à la tolérance et à la réconciliation entre le Moi et l'Autre.*

**Résumé**

Choc des civilisations- Le Moi- l'Autre- l'Européen- l'immigration- la tentation- l'exclusion.

**المقدمة**

اتسمت الرواية العربية ببعدها الأيديولوجي الذي يتجاوز مظاهر الواقع ، ليؤلف نصا روائيا قادرا على رصد العوالم التي يأمل أي فرد في تحقيقها داخل مجتمعه، أو البحث عن عوالم أخرى في مجتمعات أكثر تقدما وانفتاحا يجد فيها ملاذه الحقيقي، ويحقق فيها ما يأمله، ولم تعد الرواية العربية رصدا للواقع المؤلم والمنهزم واللامسؤول لتعيد كتابته بأساليب لا تخلو من الحلم والطمأنينة، اتجاه واقع افتراضي يرصد تشكل ملامح مجتمع تسوده الديمقراطية والعدالة وبسط الحريات، ولم تنأى الرواية المغاربية عن هذا المضمار حيث أخذت في تطور مستمر على مستوى أبنيتها وتشكلاتها النصية شكلا ومضمونا، ولم تدخل الرواية العربية والمغاربية على وجه الخصوص أبواب العالمية إلا من خلال ما تطرحه من قضايا إنسانية ومصيرية ذات بعد عالمي ،ولذلك فقد اهتمت الرواية العربية في الكثير من الأحيان بشرح تيمات ومواقف من الحضارة الأوربية قائمة على وجهات نظر متناقضة، تجعل من هذا الآخر صورة لمجتمع مثقف بلغ شأوا كبيرا من الحضارة الإنسانية العالمية، وبالمقابل نجد من يرى في هذه الحضارة على أنها تمثل موقفا سلبيا مفرغا من القيم الانسانية والعالمية التي تعطي للحضارة قيمة معنوية، بل أفرغتها من قيمها الروحية وأعطتها بعدا دلاليا مغرقا في المادية، وهنا يمكن طرح عدة تساؤلات للإحاطة بالموضوع وجعله أكثر ديناميكية من خلال ربطه بواقع الإبداع الروائي العربي الذي جعل من أوربا كتيمة مهيمنة داخل المتن السردي: فما هي صورة الآخر الأوربي في الرواية العربية وكيف تمظهر هذا الآخر من خلال لغة سردية تطرح إمكانية؟ وماهي طبيعة العلاقة القائمة بين الأوربي والإفريقي؟ وأمام كل تلك المتغيرات على الساحة العالمية من ظهور القوة العظمى ومركزية أوربا حول العالم، هل استطاع الإفريقي المحافظة على هويته والتمسك بها أم أنه تخلى عن مقومات هويته العربية والإفريقية؟

حاولت الرواية المغاربية رصد الواقع الحضاري والثقافي بأسلوب راق مميز يشرح الواقع ويدخل في محاورة المجهول لينتهي إلى استخلاص أفكار ومعاني تصنع عالما متخيلا يستمد خطوط عرضه من الواقع بكل تمفصلاته، ومن بين المواضيع أو التيمات المهمة هي العلاقة التضادية بين أوربا والمغرب العربي بوجه خاص، وبين أوربا والعرب والمسلمين بوجه عام، وكثيرة هي الروايات المغاربية -سواء تونسية أو جزائرية أو مغربية- التي بلغت شأوا كبيرا في رصد العوالم الغربية وتبيان مظاهر الحضارة الغربية بكل معالمها وتمثلاتها في المخيال(*) الروائي المغاربي وهنا ظل الروائي حاملا لمشروع أمة بأكملها إنه موقف الآخر الغربي من الأنا العربي التي تمثله رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" وهنا يصور موقف الأوربي

انطلاقا من موقف أحد شخصيات الرواية الرجل البريطاني الذي لا يؤمن إلا بقوة وجبروت الغربي وسيطرته الكاملة على الفرد العربي الذي ظل في نظر هؤلاء الأوربيين نموذجا للفرد الضعيف المستضعف المغلوب على أمره والذي لايملك قوة المواجهة فيقول الراوي: «أنظر كيف يقول "نحن" ولا يشملني بها مع العلم بأن البلد بلدي وهو -لا أنا- الغريب (...) صمت برهة، فازدحمت أسئلة كثيرة في رأسي: من هو؟ ولماذا استقر في هذا البلد؟وما قصته؟ (...) لم لا؟ (...) هل صحيح أنك من الخرطوم؟ هل يصمت أم يعطيني المزيد؟»(01).

وكأن الفكر الاستعماري مازال مستحوذا على عقول الأوربيين الذين اعتبرو القارة الإفريقية قارة مظلمة وفقيرة وجاهلة لم يخرجها من ظلامها وجهلها وبربريتها سوى المستعمر الأوربي، الذي كان ولا زال له الحق في الشعور بالانتماء إلى قارة هو من جعلها تسمو نحو الانسانية، ويعتبر هذا شكلا من أشكال الاستعمار الفكري الجديد كما يعد من أبرز مبادئ الامبريالية والعولمة، التي يسعى من خلالها العقل الغربي إلى إقصاء ثقافة الأنا العربية والافريقية: «فبقدر ما يدعو إلى الاعتراف بالطابع الكوني لمفاهيم من بنات ثقافته وحداثته، مثل الحرية والمساواة والديمقراطية وحقوق الانسان، يسجن نفسه في خصوصيات هويته الثقافية الضيقة أو يتمادى في إقصاء ثقافة الآخرين وتهميشها، إلى حد يبدو فيه أن هوية الغرب بصفة عامة مسكونة بعقدة التفوق والاستعلاء على مستواها من الهويات الثقافية الأخرى»(02) وبالرغم من كل هذه المغريات والشعور بالنرجسية والاستعلاء مقابل مستوى التدني والتراجع بالنسبة للثقافة العربية والإفريقية التي ظل المجتمع الغربي ينظر إليها من زوايا ضيقة لا ترى في العربي والافريقي سوى عدوا لثقافتها، وبالتالي ظلت نظرتها السلبية لهذه القارة مترسخة في الوعي الجمعي رغم ما تقدمه الحضارة العربية والافريقية من إسهامات لأجل إرساء القيم الانسانية والحضارية ولذلك بقي: «الغرب المتقدم يبدو وكأنه عاجز عن الاعتراف بالثقافات المغايرة، إذا لم تعكس له صورته النرجسية»(03) إلا أن الفرد الافريقي بقي متمسكا بهويته اللغوية والدينية، رغم التصادمات التي طرأت على حياته بعد خروج الاستعمار الذي حاول تدمير الشخصية الإفريقية بشتى الأساليب والطرق.

فنجد الروائي المغربي "بهاء الطود" في معظم رواياته يقوم بوصف رحلاته إلى أوربا عن طريق سرد روائي مادته الكلمة الإيحائية التي توحي بوجود علاقة وطيدة بين لاشعور الكاتب والواقع الاجتماعي والاقتصادي المفترض، والذي يحلم الكاتب أن يعيشه داخل وطنه، إنها الحاجة الماسة لمحاولة تغيير واقع معاش في ظل الظروف القاسية التي يعيشها المبدع داخل مجتمع مفكك، انعكست صورته على نفسية المبدع فأبدع نصا يقوم على تحديد العلاقة النمطية بين الإنسان والعالم، كونها علاقة تعبر عن وعي الفرد بالنزاعات

الأيديولوجية والسياسية داخل المجتمع الذي يعيشه وبالتالي يعبر عن وعي جماعي تترجمه أفكار ومبادئ يعلنها الكاتب داخل نصه الروائي الذي يحاول: «عبره تفسير البنية الروائية _ القائمة في التشكل الذي تتخذه العلاقات بين الإنسان والعالم داخل النص_ بربطها بتيار فكري يمثل نمطا محددا من الوعي الجماعي، ويفسر هذا الوعي بدوره عبر تحديد موقعه بين الأنماط الأخرى من الوعي الجماعي التي تساهم في النزاعات الأيديولوجية المحتدمة داخل مجتمع معين»(04).

ولم تكن رواية البعيدون بمنأى عن هذا المضمار لكونها رصدت ملامح الحضارة الأوربية من خلال تصويرها لعلاقة الإنسان العربي بالحضارة الأوربية العريقة، هذه الحضارة الموغلة في القدم والتي لها جذور عميقة في التاريخ الإنساني العالمي، ليمتزج التاريخ بالمتخيل السردي الذي يشرح هذا الواقع التاريخي انطلاقا من مرجعيات واقعية تعيد من خلالها كتابة تاريخ الوقائع بأساليب رمزية تعتمد بدرجة قصوى عبر المتخيل، فينشأ نصا تفاعليا تتحاور فيه أجزاؤه السردية لتعيد كتابة التاريخ وفقا لوجهة نظر مغايرة وهنا يمكن للرواية أن:«تستقبل موادا تاريخية لتشييد كيان سردي دالا فنيا،ويكون بإمكان التاريخ أن يستفيد مما يحتاجه من مواد روائية، ليشيد كيانا سرديا لا تاريخيا»(05).

ركز الكاتب في رواية البعيدون جل اهتمامه على وصف الحضارة الأوربية من خلال وصف العلاقة بين المهاجرين الأفارقة والأوربيين، حيث تدور أحداث الرواية في أوربا بين إسبانيا ولندن وهولندا، ومدينة القصر الكبير في المغرب العربي، وكان بطل الرواية "إدريس" متأثرا بالحضارة الأوربية وولعا بلغتها الإسبانية حيث أصبح يجيدها مثل أبنائها حتى صار يكتب خواطره ومذكراته باللغتين العربية والإسبانية لأنه لا يجد فارقا بين اللغتين، فكلاهما تمثل بالنسبة له هوية واحدة، إنها هوية هجينة أصبحت لصيقة بالفرد المهاجر الذي انتسب إلى المجتمع الأوربي عندما تعلق بلغته، فأصبح جزء من هذا العالم الجديد الذي يطرح أمام المهاجر بيئة جديدة ولغة جديدة، وبالتالي هوية جديدة، وهذا ما أسست له الرواية انطلاقا مما طرحته من أفكار وقضايا مهمة ترسخ حرية التفكير والتعبير في بلد قد لا يجد فيه مغتربيه ضالتهم، وهنا أراد الروائي أن يوصل إلى المتلقي الواقع الإيجابي للحضارة الأوربية التي لا ترفض من أراد الانتساب إليها، بل هي تمثل الصدر الأرحب الذي يرحب بالوافدين إليه دون النظرة إلى تاريخ العلاقات بين الحضارات، فلم يؤثر العداء والاختلاف الموجود منذ القدم، على واقع العلاقات بين هذه الحضارات في العصور اللاحقة حتى في عصرنا هذا فمن خلال مزج الكاتب بين اللغتين، يرى أنه ما قد تعجز عنه اللغة العربية من تعبير يمكن أن تعبر عنه اللغة الإسبانية بشكل أدق، ويعد هذا أبرز عوامل الحوار الحضاري التي تمثله تيمة تقبل

اللغة الأجنبية وجعلها في مرتبة اللغة الأم وتعد جدلية الحوار من أبرز إشكاليات الفكر الحداثي العربي والعالمي، الذي يشرح تطور العلاقة الأوربية والإفريقية العربية بداية بالصراع ووصولا للحوار فلا وجود للحوار دون المرور بمرحلة الصراع ولذلك يكمن الحوار في:«مظاهر التأزم التي تطبع فترات التفاعل السلبي للأحداث واشتغال الفتن والمواجهات بين الأديان و الثقافات أو الإيديولوجيات أو المصالح السياسية والاقتصادية، ولتخفيف حدة هذا التأزم يكون الحوار ضروري بين أشخاص عينيين هم نتاج سياقات فكرية واجتماعية»(06) ولعل هذا ما يشير إلى فكرة التصالح بين الثقافتين العربية والأوربية، وتعد شخصية إدريس في رواية البعيدون شخصية إشكالية تحاول العمل على تفعيل فكرة التقارب بين الحضارتين وهنا يدعو الروائي إلى حوار الثقافات من خلال تقبل الآخر وتبني مقومات ثقافته دون الحاجة إلى التركيز على وجود حواجز بين الثقافتين، وهذا ما يعبر عنه إدريس من خلال قوله: «أن أهديك مذكراتي ، فقد أفرغت فيها أشياء كثيرة عن حياتي، حتى أني مزجت في كتابتها بين العربية والإسبانية، لأدرأ ما قد يعيق النسيان أفكاري، وستجد بها أجوبة كافية عن كل ما يراودك من أسئلة»(07). ورغم ما يطرحه الروائي من ضرورة التمسك بضرورة المحافظة على العلاقات الإفريقية الأوربية، فهو من وجهة نظر أخرى يمكن تفسيره بمحاولة ذوبان وانصهار في الشخصية الأوربية مما يساعد على الدخول في المتعدد وبالتالي لتحقيق الاندماج في الحضارة الأوربية وتطوير الثقافة الافريقية لا بد من إعطاء قيمة ومكانة للهوية الإفريقية والإيمان بقدرتها على التجديد ولذلك فالإنسان الإفريقي:«الجديد لن يستطيع أن يؤكد وجوده الحقيقي إلا من خلال ظروفه الاجتماعية والتاريخية، أو من خلال إطاره الحضاري العام، أما إذابة الوجود الإفريقي في الكيان الأوربي فهي محاولة عميقة فاشلة لا تورث إلا المزيد من الضياع والاغتراب»(08).

ولذلك ظل بطل رواية " البعيدون " في تصوره الإيجابي عن الحضارة الأوربية بصفة عامة ولندن كفضاء محدود على وجه خاص، فيرى فيها مدعاة لحياة رغدة وأساليب حياة توحي للإنسان العربي بضرورة التمسك بها، كما تمثل رمزا للإثارة والشهوة، فكانت لندن المدينة الجميلة الساحرة التي سلبت لب كل زائر لها فأصبح الفرد العربي يرى فيها محركا لشهواته، فكان إدريس الشخصية العربية الإفريقية المسلمة متبنيا للحضارة الغربية بكل مؤثراتها السلبية والإيجابية منسلخا عن حضارته العربية، وبالتالي مثل إدريس رمزا للشخصية العربية المسلمة المنبهر بالحضارة الأوربية والمتماهي في هذه الحضارة ولعل هذا ما يطرحه الراوي: "حقيقة كنت أشعر بعياء وإرهاق شديدين إلا أن إدريس كان لي بالمرصاد، فما إن تمددت في فراشي حتى هاجمني بتفاصيل حياته اللندنية الجميلة يعمل بالثقافة فيواكب

كل مستجدات الفكر والفن والحياة، يرتوي من عوالمها السحرية بوجدانه وأحاسيسه وعقله»(09).

يطرح إدريس في هذه الرواية فكرة راودت الراوي وهي التعلق بمغريات الحضارة الأوربية وكأنها سراب تعلق به الراو، هذا السراب الذي يحمل في طياته شحنة من الأحاسيس التي تمتزج بالإعجاب والدهشة من كل ما يتعلق بالفرد الأوربي، وكأن إدريس أصبح الفرد العربي الذي يمثل الثقافة الأوربية بامتياز كما يمثل الثقافة الأوربية والحياة اللندنية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فمن خلال هذا حاول الروائي إيصال رسالة للمتلقي مفادها أن الفرد العربي الذي اختار أوربا ملجأه وملاذه الوحيد والآمن في لحظات القسوة واليأس التي عاشها في وطنه، فأصبح أكبر ممثل للحضارة الغربية بكل تفاصيلها وهنا اكتسب هوية جديدة هجينة، جعلته يتماهى في حضارة وثقافة غير ثقافته التي نشأ عليها، إنه نموذج للإنسان الجديد الذي أراد أن يغير واقعه فوقع ضحية مشروع الليبرالية فوجد نفسه داخل عالم جديد وواقع مختلف غير عالمه وواقعه مما أكسبه شخصية جديدة غير شخصيته، وهذا ما يهدف إليه المشروع الغربي لإبادة الشخصية العربية المسلمة، إنه إنسان جديد ومن نوع آخر سلاحه الكلمة والمادة، إنه المشروع الغربي التدميري ضد الحضارة العربية، الذي أراد أن يجعل العالم بيد قوة عسكرية واحدة في العالم تديره وتتحكم في كل أفراده، وبالتالي الترويج للدعوة إلى ترسيخ: «ميكانيزم الانسلاخ عن الشخصية العربية، والانفصال... وبالتالي تبدولنا كظاهرة مخصوصة للتشبع بروح الغرب»(10) إنه مشروع العولمة ودحض الشخصية العربية وجعلها تابعة للأوربي بشكل حتمي ودون تقبل أية ردة فعل ، ولعل هذا ما تطرحه الرواية من خلال مشروع الزواج المنتظر بين " كريستين آلسن" و "إدريس" كعلامة فارقة يدعو الروائي من خلالها إلى تبني الفكر العربي للثقافة والحضارة الغربية دون سابق إنذار حيث تدعو كريستين(أوربا)إدريس (العرب) إلى الزواج بقصد الإغراء المعنوي والروحي والمادي من خلال الرسالة التي أرسلتها كريستين لإدريس: «تعال لنتزوج في أمستردام (...) منذ أن خرج العرب من غرناطة، وكلانا ينتظر الآخر، هكذا لم يكن لقاؤنا صدفة، بل كان مرسوما مخططا له في الغيب وكان على العالم أن يتقدم ويصغر حتى نلتقي، ويوم نتزوج لن تعود الدنيا في حاجة إلى مواصلات وبريد ومشقة تعلم اللغات»(11).

وهنا يشرح الروائي تاريخ العلاقات بين الحضارتين من خلال استحضار الأندلس وخروج العرب منها، لتصبح أوربية الانتماء وهذا ما يطمح إليه اليوم الإنسان الأوربي وهو إعادة انتماء العرب إلى الحضارة الأوربية، ليصبح العالم رقعة جغرافية واحدة ومحددة تتوحد فيه الثقافات وتتساوى وتتجاور فيه اللغات، ليصبح العالم ذو وجهة واحدة، إنها فكرة

العولمة والليبرالية الجديدة، والدعوة إلى حوار الثقافات والاعتراف بهوية كل ثقافة من أجل إرساء القيم الانسانية وقيم التسامح والحوار ولتحقيق هذا يجب مراعاة أخلاقيات الحوار الحضاري التي يجب: «توفرها ومراعاتها في جميع المبادرات الرامية إلى إنعاشه وتفعيله وجعله مثمرا ، فلكي يرسى على أسس سليمة، ينبغي أن يقوم على مبادئ أساسية لعل أهمها:التسامح والاعتراف بحق الاختلاف الثقافي وممارسة النقد والنقد الذاتي»(12).

لم يخف إدريس تعلقه بالحضارة الغربية ومغرياتها المادية فكانت مذكراته كلها ندور حول علاقته بالحضارة الأوربية، فنجد الراوي يسرد انطباعه عن الحضارة الأوربية، وتغير نظرته من خلال التحول الحاصل على مستوى شخصيته التي ظلت متمسكة بإدريس ومذكراته كمشروع جديد يوحي بالتغيير الجدري لحياة كل من يقرأها، وكأنها دعوة منه إلى تبني ثقافة الآخر، وهي بمثابة لوحة إشهارية تغري كل من يطلع عليها بعالم إدريس المفتعل حيث يقول الراوي: «كانت عادتي حين أرحل عن بلد ما، أن أعود بذهني لاستحضار ما شاهدته من معالم، وما أثار انتباهي من عادات أهل ذلك البلد ،وقد أخطط لما أنا مقبل عليه في بلدي من أشغال والتزامات، لكنني هذه المرة ألغيت نفسي لا يشغلني سوى مذكرات إدريس المختفية بداخل حقيبتي وكأنها قنبلة مهيأة للانفجار في أي وقت ، ربما كان شرط إدريس بأن لا أقرأها إلا بعد أسبوعين من وداعه (... هكذا أمضيت أسبوعين كاملين أحصي الأيام وأترقب اليوم الذي افتض فيه ذلك الغلاف لأعانق عالم إدريس وأجوائه الإسبانية التي كنت ذات يوم جزء منها»(13).

ولعل مل قاله الراوي عن إدريس إنما يدل على تعلق الأنا العربي بالحضارة الأوربية تعلقا يبلغ حد التماهي، فكان إدريس صورة للإنسان العربي الضائع بين هويات مختلفة،إنه مشروع إنسان جديد مضطرب بل هو صورة عن الإنسان العربي الذي ظل متمسكا بالحضارة الأوربية رغم تباعد واختلاف الأفكار والمرجعيات الثقافية والعقائدية بين الحضارات، كما يعتبر إدريس نموذجا عن الفرد العربي المغترب الذي انفصل عن وطنه ليتعلق بفضاء آخر متبنيا هوية جديدة فظل متمسكا بها رغم انفصاله الجغرافي عن هذه الحضارة لفترة زمنية محددة.

احتلت أوربا بجغرافيتها وفضائها وما يسودها من عادات وتقاليد وقيم... إلخ. موقعا هاما في الرواية المغاربية على وجه خاص، فنجد الروائي "عمارة لخوص" التي حملت معظم أعماله الإبداعية زخما فكريا وثقافيا، مشحونا بقوة ذاتية إبداعية جعلت من الآخر بؤرة أعماله فلم تنأى رواياته عن تصوير واقع وحياة الإنسان الأوربي بهمومها وآلامها وآمالها، وقد كشف الروائي عمارة لخوص من خلال تجربته الإبداعية عن ثقافة الآخر بكل سلبياتها

وإيجابياتها فكانت روما داخل نصه الإبداعي نافذة مهمة يطل من خلالها القارئ على العالم الأوربي بكل تفاصيله وحياته اليومية كونه عاش في روما لوقت مكنه من التوغل في خفايا وخبايا الشخصية الأوربية، كما توحي الرواية بتعلقه النفسي والعاطفي حيث يقول في روايته: "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك": «روما المدينة الخالدة، روما الجميلة، روما الحب، أنا آسف، أنا لا أرى روما بعين السائح الذي يأتي إليها أسبوعا أو أسبوعين يطوف على ساحة نافونا وساحة دي سبانيا وفونتا دي تريفي»(14).

يطرح الروائي درجة تعلقه بالحضارة الرومانية وبكل صدق يحاول أن يجعل من روما مركزا مهما ومكانة رفيعة، وهذا الرأي لا يصدر عن مجرد سائح زارها لفترة وجيزة فانبهر بها، وهذا ما يتراءى لأي زائر في الوهلة الأولى، بل هي شهادة من فرد أجنبي عاش في روما وعايش أهلها فعرف تفاصيل الحياة داخل هذا المجتمع بكل سلبياته وإيجابياته، وهذا ما استخلصه الراوي نتيجة احتكاكه بهذا الآخر، الذي يعيش داخل مجتمع بلغ درجة قصوى من الرقي والحضارة بكل معانيها الراقية، فكانت روما عنوانا للجمال ومكمنا للحب وكل المعاني الإنسانية الراقية التي تهدف إلى الحوار والتسامح مع الآخر، فهي مصدر إلهام الكاتب بكل ما تقدمه من إغراء بالانتساب إليها.

ويبقى التعلق بالفضاء الأوربي عنوانا أساسيا في الرواية المغاربية، فكانت ولازالت أوربا حلما كبيرا بالنسبة لكل فرد عبي، فنجد الكثير من الروايات ترصد ملامح جغرافية أوربا بكل دقة وحب وتعلق كبير بفضاء غريب عن ثقافتنا إلا أنه أصبح عند الأكثر منا جزء لا يتجزأ من هويتنا التي أصبحت مشوبة بنوع من المغايرة والاختلاف لدخول أفكار وقيم دخيلة عن هويتنا العربية المسلمة، ولعل هذه القيم الدخيلة كانت نتيجة احتكاكنا بالآخر، ومحاولة تبني ثقافته دون مراعاة ثقافتنا الأصلية فأصبحنا منسلخين عن هويتنا، فنجد إدريس في رواية البعيدون يصف شوارع مدريد بكل تفاصيلها وما تركته من تأثير كبير على نفسيته، فكان دائما الحنين بشدة إليها فيصف يومياته بالتركيز على وصف أكثر الأماكن التي يرتادها: «في كافيتيريا "مانيلا" بساحة "ليبيدو" كانت "بيلار" بانتظاري، هذا المقهى هو الآخر صار جزء من حياتي في مدريد يتوسط مسافة الطريق بين سكني في شارع "فيرناندو" الكاثوليكي ومنزل "بيلار" في شارع الكنيسة»(15).

ومن خلال تعداد الأماكن التي كان يرتادها في إسبانيا وهولندا أراد الروائي أن يعرفنا بجغرافية أوربا، فصور لندن بكل معالمه الجميلة الساحرة والبارزة من خلال ما تطرحه من أحلام وآمال للمهاجر فيصور تطور وعراقة العمران الذي يوحي بالعراقة والتطور والرقي، والحضارة الضاربة في أعماق التاريخ فبقول: «غسلنا أيدينا ووجوهنا في إحدى نافورات

ميدان "ترافالكار" فانتعشنا من عناء الملهى وسرنا إلى أن توقفنا في "ستافنتشبيري أل فينيو" الساطع الأنوار والألوان (...) تحدث آنجل باندهاش عن طابع العمارة" المحافظ عليه والمميز للعصر الفكتوري، وصار حقهما باستعذابي الأضواء المنتشرة»(16).

وبالمقابل نجد الروائي يأخذنا في رحلة أخرى هذه المرة كانت تعكس الوجه الآخر للشوارع اللندنية، وهنا كسر حاجز الصمت الذي ظل مخيما على معظم الروايات العربية والمغاربية على وجه الخصوص او أنها تصور أوربا إلا من خلال وصفها الإيجابي وانبهارها التام ولكن هذه المرة أبى "بهاء الطود" إلا أن يخترق القاعدة ،ويصور البعد المأساوي لشوارع أوربا الغارقة في الفقر والفراغ الروحي والتشتت الفكري والعاطفي، والغارقة في الجهل، البعيدة عن كل أساليب التحضر والتي أصبحت تمجد الشهوات وتسعى إلى تلبيتها ولو على حساب حقوق الآخرين، وانتهاك حدود الإنسانية، وهذا ما يعود بها إلى قرون خلت وواقع وصفات الإنسان الأول الهمجي، وهنا نستطيع القول أن الكاتب أراد أن يكسر قيود النمطية ويطلعنا على ما وراء الستار ليكشف الموقف المضاد لأوربا الحلم والشبقية إلى أوربا الواقع المرير والصورة الحقيقية التي تبسط أمامنا أخلاق المجتمع الأوربي وتوجهاته بكل ما تحمله من تناقضات، وما يحتوي عليه الشارع الأوربي من أخلاق فاسدة توحي بحيوانية الإنسان الأوربي من خلا تصويره لإحدى أحياء لندن قائلا :«حي قديم كأنه انبعث من بضعة قرون ن ولولا أنواره الساطعة وخليط الموسيقى المتسربة من الملاهي والحانات، وقد امتزجت بقهقهات السكارى والبحارة ولغو السائحات لكنت أجزم بأننا انتقلنا إلى أحد العصور الإنجليزية الغابرة»(17).

ويمكن القول أنه رغم ما قدمته الرواية المغاربية بصفة عامة من وصف لمظاهر الحضارة الأوربية بكل ما تحمله من أفكار وصور تنم عن انبهار الأنا الواعية بالآخر الذي ظل مركز اهتمام ، رغم سلبيات ومساوئ هذا الآخر واختراقه في الكثير من الأحيان لأسمى معاني الإنسانية وأبرزها اختراق حقوق الآخر، وعدم تقبله وسيادة الأنانية وحب التملك والسيطرة.

بلغت درجة التعلق بالآخر حد الانسلاخ والتماهي، فرغم تمسك الأنا العربي بتعاليم دينها إلا أنها ظلت مشدودة بالآخر المسيحي، ومتعلقة بكل ما يحيط به من أفكار ورؤى قد تبتعد عن الإسلام كجزء من هويته، وهذا بدعوى المعاصرة وتحقيق التطور والتقدم على جميع الأصعدة وهذا ما تناولته الكثير من النصوص الإبداعية ولكن المعاصرة لا تتم إلا بالوسطية لذلك فلابد من الحفاظ على جوهر الثقافة والحضارة العربية مقابل الانفتاح على إنجازات الآخر:« فالمعاصرة بالنسبة إلى إنسان الدول النامية ليس معناها الانسلاخ عن جسد بلاده، والانسياق وراء المدنية الغربية، ولا معناها الخجل من ماضيه وحاضره وتحقيق نجاحات في دول الغرب ،وإنما معناها الإبقاء على جوهر الحضارة العربية»(18) إلا أن الأنا

العربي لازالت تضع الآخر موضوع اهتمام أكبر يجعل من هذا الآخر أسطورة كبرى يقتدى بها في جميع المواقف، لما تروج له هذه الحضارة من دعوى حقوق الانسان وإرساء الديمقراطية، إلا أنها في الواقع تعمل عكس ذلك وما هذه المبادئ سوى ادعاءات كاذبة لحفظ مكانة ومصالح الآخر الغربي، ولعل هذا ما أثبته التاريخ الانساني من حروب ودمار كان الفاعل الأوربي يخترع الأسباب ويلفق مسوغات لتنفيد تدميره الحضارات الانسانية المختلفة بدعوى الحماية وإخراج الشعوب من تخلفها إلا أن: «الغربيون منافقون، يتحدثون عن الديمقراطية للدفاع عن مصالحهم فقط،لقد ساندو طويلا أسوأ الأنظمة الديمقراطية للدفاع عن مصالحهم»(19).

انطلاقا مما قدمناه من وصف الرواية لمظاهر الحضارة الأوربية، نستطيع القول أن رواية البعيدون حاولت إقصاء واقع هذه الحضارات وحقيقتها التي ظلت تدور حول الشخصية الأوربية وعلاقتها بمن حولها، فلم تصور هذه الروايات أوربا إلا من خلال رؤية تسودها مشاعر الانبهار بهذه الحضارات ودرجة الإعجاب الذي بلغ أشده ليتبنى الإنسان العربي هوية غير هويته من خلال الكثير من المواقف التي صورتها هذه الروايات، وبالمقابل نجد مقابل النظرة الانبهارية موقف مضاد يسعى إلى محاولة إقصاء الآخر الأوربي وجعله مصدرا للرهبة والقوة الفاعلة في تدني الأنا وهذا ما يعرف بالنظرة الاستعمارية التي ظلت تتهم الاستعمار وتلومه بسبب مخلفاته في القارة الإفريقية من عنصرية وبث التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة أو الوطن الواحد.

اتضحت ملامح الحضارة الأوربية في الرواية المغاربية من خلال تيمات بارزة أولها حضور للفضاء الجغرافي الواسع للكثير من الفضاءات الأوربية وتعدادها بألفاظ وملامحها عن طريق الوصف التسجيلي والواقعي لها، فتعددت المرافق والشوارع بملفوظاتها بالخط العربي وهناك من يكتب مقابلها باللغة الفرنسية ، كما فعل عمر بن قينة في معظم الأحيان، وهذا لتوسيع مدارك القارئ وإعطاء النص الروائي بعدا فنيا مشحونا بأفكار وبنيات فنية غير متوقعة، وذلك لإكساب النص أبعادا مختلفة.

كما ارتبط وصف مظاهر الحضارة الأوربية بأبرز بنيات النص الروائي وهي توظيف الشخصية الأوربية بملفوظها اللساني الذي يحيل على مرجعيات أجنبية إضافة إلى السلوكات التي تحيل هي الأخرى على المرجعية الأوربية المسيحية. إضافة إلى ذلك استعمال ألفاظ أجنبية بلغة الآخر كما ركزت هذه الروايات على وصف الجانب الثقافي من عادات وقيم المجتمع الأوربي من خلال التعليق على شخصيات الرواية أو من خلال وصف درجة التعلق بين الإنسان العربي والحضارة الأوربية، وهكذا كانت الرواية العربية رصيدا مهما يشرح

الواقع الأوربي بكل تمفصلاته انطلاقا من ذات عايشت واقعا أليما مثقلا بالمعاصي ومليئا بالمتغيرات التي جعلته يحيا في وطن غير وطنه، ورغم كل تلك الظروف بقي متمسكا بذلك الوطن في كيانه الداخلي، ومتشبثا بواقعه المعاش كبديل عن معاناته داخل وطنه، وبالرغم مما عبرت عنه الرواية من قضايا تكاد تنفصل عن الذات الروائية الساردة بمختلف مرجعياتها وقناعاتها، إلا أنها بقيت متمسكة بمبادئها الشخصية التي تكشف عن علاقة النص السردي بصاحب النص، وبالتالي فلم يعبر الروائي إلا عن قناعاته ومواقفه الشخصية ليتبث ذاتيته داخل النص الروائي، ولذلك فقد ظهرت أو تجلت ذاتيته: «بصورة أو بأخرى في الكتابة السردية، وهي مايسمى بالابداع الواعي، وهي مرحلة من المراحل التي يجد فيها الروائي نفسه حائرا بين ما عاشه (...) وبين الشخوص التي يحركها على الورق (...) كل ذلك يجعله مهيأ لاستقبال وتوصيل أدق الأحاسيس وأكبر الأحداث»(20).

فلم يعبر الروائي عن موقفه من الحضارة الأوربية إلا من خلال علاقته بواقع النص السردي، أي أن ماجاء في الرواية من أفكار ورؤى وشخصيات لا تعبر سوى عن جانب من حياة الروائي الذي ارتبط بمرحلة معينة من حياته لذلك فالروائي: «يبني أشخاصه (...) من عناصر مأخودة من حياته الخاصة، وأن أبطاله ما هم إلا أقنعة يروي من ورائها قصته ويحلم من خلالها بنفسه، وأن القارئ لا يقف موقفا سلبيا محضا، بل يعيد من جديد بناء رؤيا أو مغامرة ابتداء من العلاقات المجمعة على الصفحة، مستعينا هو أيضا بالمواد التي هي في متناول يده ،أي ذاكرته»(21) ، تلك الظروف الشخصية التي كان فيها أشد قربا من الحضارة الأوربية، عايش أبناءها وتجول في معظم أزقتها وخبر كل مكنوناتها ،ليعطي للقارئ صورة مثلى عن حضارة لطالما حلم بها فكان أصدق موثق عن أخبارها، ولذلك كانت الرواية العربية بمثابة سجل سياسي واقتصادي وثقافي لتاريخ الحضارة الأوربية بكل ما تحمله من رؤى وأبعاد، شكلت بطاقة تعريف لهذه الحضارة من وجهة نظر إفريقية عربية.

ظلت علاقة الشرق والغرب علاقة جدلية تكرس ثنائيات ضدية مختلفة تجعل من الشرق صورة ومعيارا للتخلف العلمي والتكنولوجي...إلخ، أما الغرب فيمثل صورة للتقدم والتطور والازدهار على مستوى جميع الأصعدة. وانطلاقا من وصف هذه العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب، الأنا والآخر، التي كانت ولا زالت موضوعا بارزا وإشكالية رئيسية تناولتها الرواية العربية والعالمية عموما، والرواية المغاربية خصوصا من خلال طرح أشكال هذه العلاقة وملابساتها التاريخية وأبعادها المختلفة، ولم تنأى الرواية المغاربية عن هذا التوجه حيث صورت أوربا (الغرب) مصدرا للقوة والهيمنة ومبعثا للإعجاب وعنوانا للسيطرة، فلم تكن أوربا في يوم ما في نظر أي مبدع مصدرا للتخلف كون هذا المصطلح لا يتماشى مع

طبيعة وماهية الحضارة الأوربية بكل تفاصيلها، فكان موضوع التفسخ الأخلاقي في الحضارة الأوربية عنوانا للتحرر وموضوعا للاستقلالية الذاتية، وصورة للتطور والانفتاح، ولعل أبرز الروائيين المغاربة الذين بالغوا إلى حد كبير في وصف أوربا وجعلها عنوانا للجمال والتحرر ووصفوها بالحلم الجميل الذي يتطلع إليه كل مهاجر أو سائح، نجد الروائي عمر بن قينة في روايته "مأوى جان دو لان" يصف شارع جان دو لان بتفاصيله المهمة وسجن سان جاك، وما يتوفر عليه هذا الشارع من مرافق وتجهيزات بكل إعجاب وحب وتأثر بالغ الأهمية ، وكأنها كلمات تصدر عن مواطن أصلي، ومتعلق أشد تعلق بوطنه.

**الهوامش**

*روائي مغربي من مواليد مدينة القصر الكبير (1946) له عن دار الهلال المصرية سنة 1990 رواية البعيدون بأربع طبعات، كما ترجمت إلى الإسبانية عام 2014، وله رواية أبو حيان في طنجة سنة 2010، وله قيد الطبع سيرة ذاتية وجزء ثاني من البعيدون.

01. موسم الهجرة إلى الشمال. ص/ص: 12-13.

02. عبد الرزاق الداوي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات (حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة)، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، بيروت،ط1، 2003، ص: 107.

03. المرجع نفسه، ص: 108.

04. ليليان غصن سويدان، قراءات ثلاث لرواية "الغريب" لكامو، مجلة الآداب،ع1-3،1990، ص: 35.

05. عبد السلام قلمون، الرواية والتاريخ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2010، ص: 102.

06. محمد مصطفى القباج، أخلاقيات الحوار مع الآخر المختلف في الفكر العربي الإسلامي، مجلة المسار، ع58، تونس، أوت2001، ص: 12.

07. بهاء الطود، البعيدون، ص: 29.

08. أحمد سعيد محمدية، الطيب صالح عبقري الرواية العربية، دار العودة، لبنان، ط1، 1976، ص: 121.

09. بهاء الطود، البعيدون، ص: 31.

10. عبد الكبير الخطيبي، في الكتابة والتجربة، تر. محمد برادة، منشورات الجمل لبنان، دط، 2009، ص: 94.

11. البعيدون، ص: 111.

12. عبد الرزاق الداوي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، ص: 95.

13. البعيدون، ص/ص: 32-33.

14. عمارة لخوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، ص: 84.

15. البعيدون، ص: 51.

16. البعيدون، ص: 89.

17. البعيدون، ص: 87.

18. أحمد سعيد محمدية، الطيب صالح عبقري الرواية العربية، ص: 121.
19. عمارة لخوص، القاهرة الصغيرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص: 44.
20. شوقي بدر يوسف، الرواية والروائيون، (دراسات في الرواية المصرية)، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ط1، 2006، ص: 10.
21. ميشال بوتو، بحوث في الرواية الجديدة، تر. فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، لبنان، ط3، 1986، ص: 64.